منارات
m a n a r a t
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
www.almadasupplements.com
العدد (5416) السنة العشرون - الاربعاء (26) نيسان 2023

سلمى الخضراء الجيوسي

سلمى الخضراء الجيوسي: وزراء الثقافة العرب يقرّون معايير غربية ضدنا؟

جعفر العقيلي

من المعروف عن الناقدة والباحثة والمترجمة سلمى الخضراء الجيوسي أنها تنجز معظم مشاريعها بجهود فردية، لكن ما تقدّمه هذه الباحثة والكاتبة والمترجمة يفوق في أثره ونتائجه ما تقدّمه مؤسّسات حكومية وغير حكومية ضخمة تتوافر لديها الأموال والإمكانات وتُخَصَّص لها الميزانيات. والسرّ في ذلك أن الجيوسي تُقبل على مشاريعها بهمّة عالية، وتتولّاها برعايتها وإشرافها، وتكرّس لها وقتها وجهدها، مؤمنةً بقدرتها على إحداث الفرق وطبْع بصمة تخصّها وحدها دون سواها على جدار التاريخ.

والزائر إلى بيتها في العاصمة الأردنية عمّان، يعجب وهو يتأمّل ما يحلو لي أن أدعوه "خزانة الأسرار" التي قسمت إلي عشرات الصناديق لتحتضن متعلّقات المشاريع التي لم تنتهِ (وربما لم تبدأ) بعد، ويشمل هذا الأفكارَ والخطاطات والتصوراتِ الأولية والمحاورَ والاقتراحات.. وهذا واحدٌ من المؤشرات على الجدّية والمثابرة والإحساس بالمسؤولية، وهي الصفات التي تلازم شخصية سلمى الخضراء، وتجعلها "أيقونةً" في مجال العمل البحثي والثقافي المنطلق من رسالة وطنية وقومية واضحة الملامح والأهداف.

ومن هذه الزاوية يمكن تفهّم الدوافع التي انطلقت منها وهي تؤسس في عام ١٩٨٠م مشروعها الكبير "بروتا"، فقد كانت هناك حاجة ماسّة لوضع الكتاب العربي الجيد على رفوف المكتبة العالمية، وكان لا بد من سدّ الفراغ الناتج من غياب الثقافة العربية في المدوّنة الإنسانية. ثم جاء تأسيس "رابطة الشرق والغرب" للدراسات (١٩٩٢م)، وهو مشروع أخذ على عاتقه إصدارَ عدد من الكتب النوعية المشتملة على دراسات حضارية، ومنها كتاب جامع عن حقوق الإنسان في الفكر العربي، وآخر عن القدس في التاريخ والتوراة، وثالث -كبير جداً- عن المدينة في العالم الإسلامي، ورابع عن الفن القصصي العربي في العصور الكلاسيكية.

هذه الحماسة للإنجاز وإطلاق المشاريع سمة لصيقة بشخصية سلمى الخضراء الجيوسي التي لا تفتأ تؤكد أنك إنْ قدمتَ أدبك وتراثك بشكل متقن وذكي، فإن العالم مستعدّ له ومنفتح لك، مهما كانت محاولاتُ أعداء الثقافة العربية لردعه ولمنعك من تقديمه قوية.

وتقرّ الجيوسي أنّ ما يفتّ في عضدها، هو أنّ الرسالة الأساسية التي كرّست لها حياتها، لم تصبْ بـ"العدوى" إلّا عددًا قليلًا من المسؤولين العرب. لكن هذا لَم يُثْنها عن مقاومة الجهل الفادح بالعرب في الخارج، ونشر أرقى ما أنتجه العرب من أدب وإبداع في العالم، والتعريف بالإرث الروحي والمزايا الإنسانية لهم في القرون الوسطى.

ومما يَسِم تجربتها أيضًا، تنوّع اهتماماتها وتعدُّد اشتغالاتها، فمن الشعر إلى النقد، ومن تأريخ الأدب إلى البحث والترجمة، ومن الإشراف على الأنطولوجيات الموسوعية إلى الغوص في التراث.

فقد أبدت هذه المبدعة اهتمامًا بالشعر في بداياتها، وأصدرت مجموعتها اليتيمة فيه "العودة من النبع الحالم" عام ١٩٦٠م، ثم تحولت إلى النقد والبحث والترجمة بعد أن أجرت على الشعر "حكمًا جارحًا" على حد تعبيرها. فكانت إذا جاءتها القصيدة، لا تتردد في تأجيلها ريثما تنتهي من هذا ومن ذاك، ولأن لحظة الإبداع هشة ولا تطيق التأجيل، فقد ضحّت سلمى الخضراء بما لا يُضَحّى به حتى تنجز ما يجب أن يُنجَز، بحسب ما تقول قبل أن تضيف: "لو كنت أعيش في زمن رخيٍّ أتمتع باستقرار الوطن جميعه وتقدمه المستمر، لما اخترت إلّا الإبداع تعبيرًا عن تجارب الحياة، ولكني أدرك أنه لن يقوم بنا إلا العمل المستمر للدفاع عن شرفنا المغتصَب وسمعتنا الحضارية وإنجازاتنا الزاهرة".

وفي النقد، استهواها التأريخ الأدبي أكثر من سواه، لهذا خصصت أطروحتَها للدكتوراه لتناول الشعر العربي الحديث منذ القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٧٠م مؤرّخة كل ما حصل لهذا الشعر منذ عصر النهضة.

وفي مطلع الستينيات، ترجمت عددًا من الكتب عن الإنجليزية، منها كتاب لويز بوغان "إنجازات الشعر الأميركي في نصف قرن" (١٩٦٠م)، وكتاب رالف بارتون باري "إنسانية الإنسان" (١٩٦١م)، والجزأين الأوّلين من "رباعيّة الإسكندرية" للورانس دريلم "جوستين" و"بالثازار" (١٩٦١/ ١٩٦٢م)، و"هكذا خلقت جيني" لأرسكين كالدويل (١٩٦١م)، و"والت ويتمان" لريتشارد تشيس (١٩٦٢م)، و"الشعر والتجربة" لآرشيبالد ماكليش (١٩٦٢م).

وفي عام ١٩٧٧م نشرت دار بريل (ليدن)، وهي أعرق دور النشر الغربية لنشر الكتب عن الحضارات غير الغربية، كتابها "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث" في جزأين، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية، وصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت. وحررت الجيوسي أكثر من أربعين عملًا في إطار مشروع "بروتا"، ومن بين هذه الأعمال سبع موسوعات ضخمة للأدب العربي الحديث، هي: "الشعر العربي الحديث" (٩٣ شاعرًا)، "أدب الجزيرة العربية" (٩٥ شاعرًا وقاصًا)، "الأدب الفلسطيني الحديث" (١٠٣ شعراء وكُتاب)، "المسرح العربي الحديث" (١٢ مسرحية، بالاشتراك مع روجر آلن)، "القصة العربية الحديثة" (١٨٧ إدخالًا)، ثم المسرحيات العربية القصيرة (٢٠ مسرحية).

مُنحت سلمى وسام منظمة التحرير الفلسطينية عام (١٩٩٠م)، والجائزة التكريمية التي يقدّمها اتحاد المرأة الفلسطينية في أميركا عام (١٩٩١م)، ووسام القدس عام (١٩٩٩م)، ووسام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت عام (٢٠٠٢م)، وكرّمتها جمعية الخريجين العرب الأميركيين (١٩٩٦م). كما نالت جائزة سلطان العويس للإنجاز الثقافي عام (٢٠٠٨م)، وجائزة خادم الحرمين الشريفين للترجمة، مناصفة مع المستشرق الألماني هاندرتش هارتموت (٢٠٠٩م).

يشار إلى أن سلمى الخضراء أنهت تعليمها الثانوي في كلية شميت الألمانية بالقدس، ودرست الأدبين العربي والإنجليزي في الجامعة الأميركية ببيروت، ثم سافرت إلى لندن، حيث التحقت بجامعتها وحصلت منها على درجة الدكتوراه في الأدب العربي، وعملت أستاذة للأدب العربي في عدد من الجامعات العربية والأميركية، قبل أن تتفرّغ لمشروعها "بروتا".

هذا الحوار أجريتُه معها لـ"الفيصل"، وتطلب ذلك أن ألتقيها مرات عدة، في بيتها في عمّان، وفيه نقف على محطات مضيئة في رحلة التجربة، ونطلّ على رؤى هذه الباحثة التي تمثّل علامة فارقة في المشهد الثقافي العربي، ونسمع منها عمّا يؤرقها ويشغل بالها، ونتعرف موقفها من عدد من القضايا الملحّة والراهنة.

□ خضت معركة حقيقية للتعريف بالأدب العربي، كيف تنظرين الآن إلى ما قمت به؟ وماذا تقولين للأجيال الجديدة التي هي أحوج ما تكون إلى قدوة أو نموذج؟

■ تبدأ المعركة منذ الطفولة: كيف ينشأ الطفل وماذا يعرف عن تراثه ووضعه الحضاري في الحاضر والماضي. أنا نشأت في جوّ وطني حتى النخاع، فليس غريبًا أن أتبنّى ملءَ قسم من فجوات التاريخ بما أنجزناه ما دمتُ قادرة على هذا. لا يمكنني أن أنسى تلك اللحظة التي غيّرت حياتي. كنت في أستوكهولم مع الشاعرين التونسيين المنصف الوهايبي ومحمد الغزّي مسافرين من بيت صديقتي العزيزة "سيغريد كالة" في ريف العاصمة عبر أستوكهولم جنوبًا إلى "لوند" لحضور مؤتمر عن الشعر العربي والسويدي الذي كان سينعقد في "لوند" في جنوب السويد، وذهبنا بتدبير مسبق من رئيس مكتبة مؤسسة نوبل السيد "أوستن شوستراند" إلى زيارة هذه المكتبة الكبيرة التي كانت تجمع آلاف الكتب العالمية. فبعد أن تجولنا في المكتبة طلبتُ أن نرى الأرشيف العربي. وتردد "شوستراند" لحظتين ثم فتح لنا درجًا صغيرًا وأخرج منه أربعة كتب محدودة الحجم مترجَمة من العربية إلى الإنجليزية، وهذا كان كل ما عندهم من لغتنا. وسمعتُ صوتي يعلو بفزع للمنصف الذي كان واقفًا قربي: "تغيّرت حياتي يا منصف!". فقد صممت على أن أفعل كل ما بوسعي لتغيير هذا الوضع الشائن. وبدأ مشروع "بروتا" العمل على هذا في اليوم التالي. والحق أنه لم يُفشلني قط، وإن كان للذكورية أيّ تأثير فهو أن المساندات لم تأتنا إلا بعد إنجاز مشروع نعمل عليه، فإذا أتممناه ونشرناه أعطونا المشروع التالي، وكان في وسعي أن نعمل على عدة مشاريع معًا كما كنت أنوي، فالوضع حرج ويحتاج إلى بذل سخيّ للوقت والمال، ولكن الباذلين للمال لم يقتنعوا ولم يساندوا لنا إلا مشروعًا واحدًا بعد مشروع. ومع شكري الجزيل لهم لا بد من القول: إن تردّدهم في استغلال طاقتنا على عمل واسع قد قلص مردودنا العملي كثيرًا رغم حاجة الثقافة العربية إلى إنجاز عدة مشاريع دفعة واحدة.

أنا ما زلت أذكر، بقهر وحرقة، كيف نشأ جيلي الذي وُلد بعد هجوم الاستعمار الغربي علينا بقليل، فقد كان يعرف عن تاريخ الإمبراطورية الإنجليزية أكثر بكثير مما يعرف عن تاريخ العرب الذين كانوا لعشرة قرون على الأقل في العصر الوسيط، أقوى الأمم غربي الهند وأعمقها حضارة وإبداعًا. اليوم أصبحت المعرفة عن التراث العربي متاحة لطلبة العلم إلى حدّ مقبول، ولم يعد الجهل بها مقبولًا.

في مواجهتي مع معلمة إنجليزية في سنوات الاستعمار الأخيرة في فلسطين، تظهر علائم المؤامرة علينا وذلك التلقين الذي كان يتلقاه الموظفون الإنجليز في دوائرنا لإخضاعنا والبروز علينا آمرين متمردين. أنا تغلبتُ على هذا وأظهرتُ مكيدتهم، ولكن هذا التغلب لم يكن ميسورًا للكثيرين الذين تربّوا على الخوف من المستعمرين ومحاولة إرضائهم.

□ توصَف عمليات الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى، بأنها رهن المصادفة والارتجال. كيف يمكن إطلاق مشروع عربي جدّي يأخذ على عاتقه نقل ثقافتنا إلى العالم؟

■ ليس هذا أمرًا عسيرًا أبدًا. مشروعي مشروعٌ عربي جدّي كل الجدّة وناجح كل النجاح، وقد أخذ على عاتقه نقل ثقافتنا إلى العالم، ولكن الذين ساندوه فعلوا ذلك بتدريج ومحدودية، وبدل أن نخرج ست أو سبع موسوعات في ١٨ شهرًا كما كنت مصممة وكما كنا قادرين، اضطررت إلى تقليص العمل ليتماشى مع توقيتهم. يبدو لي أن كل عمل دقيق منظم يعتبره معظم المسؤولين صعبًا غير ميسور. ما الذي كان يمنع المقتدرين العرب أن يساعدونا للقيام بمشروعنا الذي قدمته لهم عامرًا كاملًا لا ينقصه إلا المال، والمال طلبته منهم وأعطيتهم الخيار في إدارته هم بأنفسهم ولكنهم لم يؤمنوا بشيء ولا سيما بروح العمل نفسه وقيمته وضرورته. لم يبدُ ذلك مهمًا أو لعلهم ظنوه غير ممكن، أي أنهم لم يدركوا البابه الأساسيَّ ومقدرتنا عليه، وأظن أن ذلك كان يعود ليس فقط إلى سوء التقدير لقيمته الإبداعية وفعاليته الأدبية والجمالية، بل أولًا لأن الشعور بتخلّفنا عن ركب الحضارة والإبداع كان منغرسًا في النفوس. ثم إن الذكورية دائمًا كامنة وترفع رأسها لتقليص دخول المرأة إلى العالم المتحرك ما استطاعت. مع كل هذا، إنّ ما قدمناه حتى الآن لم يكن محدودًا على الإطلاق.

□ خلال مشروعك الثقافي لنقل عيون الأدب العربي إلى الإنجليزية، ركزتِ كثيرًا على إصدار الموسوعات الكبيرة. لماذا التركيز على الموسوعات؟

■ كنت أودّ إدخال أجمل ما عندنا من إبداع، وهذا قد لا ينجح إذا ركزتُ فقط على انتخاب عدد معين من كل بلد عربي، فقد يكون في بلد ما مبدعٌ كبير هو الوحيد في بلده، ولذا فقد ركزت على انتخاب الأجود المتاح في العالم العربي جميعه دون الإعلان عن عدد المبدعين هنا أو هناك، قليلهم أو كثيرهم. الموسوعة العامة تتخطى هذا النوع من الإعلان وتقدم أجمل المنتخبات باسم العرب جميعهم.

□ تقولين إنه لم يَحْمِك من القلق في شبابك إلا انتماؤك العربي ورؤياك للوطن الكبير وإمكاناته الشاسعة. لكن يبدو أن الرياح قادت السفينة إلى غير ما كنت أنت وأبناء جيلك تأملين. هل تعتقدين أن حلم الوحدة ما زال ممكنا، ولماذا؟

■ نحن في صراع عميق مع مخطط غاية في اللؤم والبراعة، وقد خضع العرب له منذ زمن غير قليل. لقد لمست أنا شخصيًا سوء تقدير الشبان العرب المتعلمين لإنجازات الثقافة العربية عبر القرون وتصديقهم لتراخينا، ذلك التراخي المزعوم، عن إغناء الإبداع الأدبي العالمي وهذا رغم أننا من أوائل بناة الثقافة الإبداعية في العالم. ولكن السؤال هنا هو: ما الذي يفعله وزراؤنا المسؤولون عن الثقافة العربية؟ ما بحثهم في هذا الأمر؟ ما اجتهادهم؟ ما مخططهم؟ هل يرضون أن يتركوا مخطط التغيير والانقلاب الذي نحتاج إليه كثيرًا دون جعله من أوائل متطلبات مخططهم الثقافي؟ كيف يرضون بالصمت عن معايير مجحفة ضدّنا ويتركونها تقرر سمعة هذه الأمة ثقافيًا؟ لم يعد ممكنًا ترك المخطط الاستعماري ينمو وينغرس عامًا بعد عام في العقول، فحتى جيل الستينيات في القرن الماضي كما أذكر، نشأ يظن أننا تخلفنا عن الإبداع تاريخيًا. ولم يستغل أحدٌ من الرعاة القادرين على مواجهة هذه الافتراءات ضدنا، مركزه ليحاول تغيير هذا الوضع. كيف حدث ويحدث هذا؟ إنه أمر جاد جدًا.

□ حركة الثقافة في العالم تتسارع على ما يبدو، نحو التبادل الثقافي المتكافئ. ما الذي ينبغي أن نفعله كعرب لتحقيق حضورنا المناسب الذي يعبّر عنا؟

■ نؤسّس مركزَين رئيسيْن للثقافة؛ أولهما مركز يدْرس ما يَحْسُن تقديمه إلى العالم تَحت مخطط مدروس، يعمل فيه أساتذة معتمدون؛ وثانيهما مركز يشرف على نقله عالميًا عبر الترجمة. وللمركزين فروع متعددة، بحسب الحاجة. وتفصيلًا أكبر: نعيّن لذلك لجنة مرموقة من المثقفين المتخصصين منهم بالثقافة العربية قديمها وجديدها وعندهم أيضًا معرفة بالثقافة العالمية، على الأقل بإحدى لغات العالم الأولى. وذلك لانتخاب النصوص، واضعين لذلك شروطًا مدروسة قبل البدء في أيّ عمل. ويتبع ذلك عملية الترجمة نفسها، وهذه مؤهلة عندنا في "بروتا"، ولا يمكن التنازل عن أيٍّ من شروطها. فالترجمة الجيدة تسير في أربعة مدرّجات هي: الترجمة الأولى، التدقيق المعنوي للترجمة، تحرير الترجمة (أي وضع العمل المترجم بدقة في لغة وأسلوب يضمنان الأمرين معًا: معانيه وجمالياته)، والتدقيق الأخير الذي يعنى بالأمرين؛ المعنى والمبنى.

من حوار اجرته معها مجلة الفيصل عام ٢٠١٨

سلمى الخضراء الجيوسي: الرائدة الشابة.. "عربية غاضبة" أيضاً

نجوان درويش

في المرة الأولى التي شاهدتها فيها على أحد التلفزيونات العربية، كانت المذيعة تسألها كيف تمكّنت بمفردها من إنجاز مشروع كبير في ترجمة الأدب العربي إلى الإنكليزية. وتقصد مشروع "بروتا" الذي بدأته سلمى الخضراء الجيوسي منذ ١٩٨٠ ونتجت منه مجموعة أعمال وموسوعات وكتب مترجمة إلى الإنكليزية. لم تنطل المجاملة على الجيوسي التي أجابت المذيعة بلهجة مؤنِّبة: هل تريدينني أن أنتظر الحكومات العربية لتفعل ذلك؟

في الأربعينيات، كانت سلمى تمشي مع بنات صفّها من مدرسة "كلية شميدت للبنات" قرب باب العمود إلى بيتها في البَقْعَة، أحد أجمل الأحياء في القدس الذي بُني مطلع القرن الماضي، خارج أسوار البلدة القديمة. الدراسة في تلك المدرسة هي ما دفع العائلة إلى الانتقال من عكا، مدينة طفولة سلمى إلى القدس مدينة صباها. وهي المولودة في السَلّط الأردنية من أب فلسطيني وأم لبنانية... وشباب بيروتي لاحقاً. نشأة شامية (بلاد الشام) بامتياز. تخرجت من الجامعة الأميركية في بيروت، وعادت سريعاً لتدرّس في "كليّة تدريب المعلمات" في القدس. وقبل نكبة ١٩٤٨ بقليل، تزوجت دبلوماسياً أردنياً وانتقلت معه إلى عمّان. وقد طوّفت وعاشت في أمكنة كثيرة من يومها. وها هي تقضي صيف ٢٠٠٩ في بيتها في عمّان.

هي واحدة من أبرز الوجوه في الحركة الشعرية المعاصرة، كتابة وتنظيراً. صدر ديوانها "العودة من النبع الحالم" عام ١٩٦٠. وكانت سلمى في قلب الجدل حول ما سُمّي حينها "الحداثة الشعرية العربية". لم تكن بعيدة عن جماعة مجلة "شعر"، لكنها اختلفت مع طروحات الجماعة. ولا يبدو أن الخلاف قد انتهى حتى اليوم مع الباقين من تلك المرحلة. وهو خلاف جوهره الهوية العربية، وقضايا التراث والحداثة، والموقف من الغرب. كانت مجموعتها تلك متقدمة على إنتاج زميلاتها في تلك المرحلة، كنازك الملائكة وفدوى طوقان. وامتازت عنهن بموقف أكثر حداثة من الذات والعالم، ولغة حسية تبتعد قدر الإمكان عن الرومنطيقية المسيطرة في تلك الفترة. لم تتوقف سلمى عن أن تكون شاعرة ونشرت قصائد قليلة بعد ذلك. لكن يبدو أنّ العمل الثقافي الواسع إمتصّ طاقتها الشعرية، وحوّلها إلى مسارات إبداعية أخرى، لكن بقي في كل شيء تفعله قلق الشاعرة وعنادها. في ١٩٧٠، نالت الدكتوراه من "معهد الدراسات الشرقية والأفريقية" في جامعة لندن، عن أطروحتها "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث" التي كتبتها بالإنكليزية، وصدرت عام ١٩٧٧ عن "منشورات بريل"، وتأخر ظهورها بالعربية حتى ٢٠٠٠ عن "مركز دراسات الوحدة العربية" بترجمة عبد الواحد لؤلؤة.

بعد سنوات من التدريس الجامعي في السودان والجزائر، وأثناء "غربتها الأميركية" أواخر السبعينيات حيث دعيت للتدريس، وُلدت فكرة "بروتا": "لم يعد بإمكاني الصمت عن هذا الوضع. وازداد موقفي حدة يوم زرت "مكتبة أكاديمية نوبل" في استوكهولم، ولم أجد فيها إلا أربعة كتب مترجمة للمبدعين العرب".

أكاديمية نوبل قصة أخرى في حياة سلمى. الثابت أنّها كانت مستشارة للأكاديمية في الأدب العربي، ولها فضل في فوز نجيب محفوظ بالجائزة عام ١٩٨٨.

لم تخفت فتوّة سلمى ونقديتها مع السنين. توزّع تعليقاتها اللماحة، وتلاحظ وتحلل كل شيء حولها، وإذا حدث وبحثت عنها أثناء مشاركتها في مؤتمر ما، تجدها في غرفة البريد الإلكتروني، تردّ على رسائلها. حين التقيناها في ندوة عن أدب الرحلة في الرباط، كانت آتية من مهرجان شعري في الجزائر، وكانت ستغادر إلى الدار البيضاء لتسلّم جائزة. لا تكترث "الدكتورة سلمى" للسنين. العمل مقدّس لديها، فهو ارتباطها العضوي بالناس. تصنع صداقات أينما حلّت، وتصغي إلى قصص الآخرين. تبحث عن الإنسان وراء كل شيء.

لم يفاجئنا رأيها في "الأخبار"، حين قالت: "هذه جريدة محترمة"... لكننا لم نتوقع أن يكون أكثر كتّاب الجريدة راديكالية هو مَن يفتن الدكتورة سلمى بمقالاته السياسية، أي زميلنا أسعد أبو خليل. بدت سلمى متابعة لمقالات أسعد، ومهتمّة حد الافتتان بـ"العربي الغاضب". لمَ الاستغراب... أليست أيضاً ـ على رقتها ـ عربية غاضبة؟

أن تقضي يومين بصحبة سلمى تجربةٌ لا تنسى. بسرعة، تبدد سلمى هالة السنين، فلا تعود تشعر بمسافة معها، حتى وإن كنتَ في سنّ أحفادها. لا تعطيك سلمى شعور الجدة، بل تنسج معك صداقة يتيحها لها شباب الشعور. حاربت طوال عمرها الصور النمطية، سواء التي أشاعها الغرب الاستعماري أو حتى التنميطات الاجتماعية المحلية السائدة، ولا سيما الخاصة بالمرأة. "بنت مشروعها النقدي ثم مشروعها لنقل الأدب العربي إلى الإنكليزية في ظل عالم ثقافي عربي هيمنت عليه المشروعات الذكورية والقيم الذكورية"، يقول الشاعر نوري الجراح أحد أصدقاء سلمى القريبين، قبل أن يضيف: "لكنها تمكنت من أن تبزّ أولئك الرجال الذين عدّوا أنفسهم صناع الثقافة العربية، واحتفظوا للمرأة بمنطقة البوح الشعوري وكتابة الخواطر الذاتية!".

ومن الطرائف التي تروى عن "الدكتورة سلمى"، أنها ذات يوم في الثمانينيات، التقت أحد الرؤساء العرب. وبينما كانت تنتظر الموعد في الرئاسة، خاطبها مدير مكتب الرئيس بـ"يا حاجّة"، الأمر الذي عدّته عدواناً ذكورياً على مكانتها مثقفة، فما كان منها إلا أن ردّت عليه فوراً: "أمك الحاجة!". حتى اليوم، لا يجرؤ أحد على التعامل معها وفق هذه التنميطات.

وجوه كثيرة لهذه المثقفة العربية الرائدة التي تحظى اليوم بالتقدير والحب أينما حلّت. كلمة رائدة التي أضعف استعمالها "رواد" كثيرون، تسترد بريقها عند سلمى. الرائد ليس هو فقط "من لا يكذب أهله" كما في المأثور التراثي، بل هو من يغضب من "الأكاذيب" الكبيرة ويرد عليها.

• عن جريدة الاخبار اللبنانية

سلمى الخضراء الجيوسي: العيش في ظلال الكلمات

علي حسين

تغوص سفينتي في البحر، تغرقُ لا أنجّيها
صقيع الليل، ياويلي، يكدِّس ثلجه فيها
فلا تقرب
أنا الموت الذي يغشى
ذرى الأعماق، لا تقرب
أنا الموت الذي تخشى،
أنا الحزن القديم، أنا ارتعاش الخوف والعارِ،
أما جاءتك أخباري؟

سلمى الخضراء الجيوسي

كان على سلمى الخضـراء الجيوسي، أن تعيش أكثر من حياة ليتحقـق لها المضـى فى قائمة مشاريعهـا الطويلة، فحياتها كمـا وصفتها كانت " آلـة دائـرة لا تتوقف ". لكن السيدة التـي كانت الضحكة تخرج من عينيها، ألقت اخـيرا عصا الحكمة جانبا لترحل بعد حياة مليئة بالكتب والبحوث وحب الشعر الذي تعلقت به منذ أن نشرت وهي في الرابعـة والثلاثين من عمرهـا ديوانها الاول " العودة الى النبـع الحـالم " – صدر عـن دار الاداب عـام ١٩٦٠، وصفها النقاد بانهـا دخلت الشعر مسلحـة بقوة متميزة وبطابع خاص.. الفتاة التي جربت كتابة القصيدة وهي في العاشـرة مـن عمرها عندمـا نظمت قصيـدة عن مقتل الملك غازي، ظلت تحتفظ بوصية والدها ان تكتب الشعر لتكشـف الزيف والتمـزق الذي يعيشه الانسـان العربي، وأن لا تنسـى انهـا ابنة شعـب يُصلب كل يـوم ومأساته تكبر يوما بعد آخر، هذه الاهداف هـي التي قادت سلمى الجيوسـي لتدخـل عـالم الشعـر. تمنـت في طفولتها ان تصبح روائية تعلقت بحكايات الف ليلة وليلة التي كانت تقرأهـا امهـا في المساء بصـوت مسمـوع: " كنت عندما استمـع للحكايات بصـوت امي تطفح عينـاي بالرؤيا ". لكنهـا ستنحـاز في النهايـة للشعر الذي ارادتـه أن يكون صوتا لمأساة شعبهـا: " مادام هذا ندرنا فلنعشق المصير " – العودة الى النبع الحالم –.

تنبـأ لهـا النقـاد ان تصبـح في الطليعة الشعـراء العرب المعاصريـن، وانهـا بسـبب ثقافتها ستكـون " في طليعة الذيـن يقفـون عنـد نقطـة التحـول في الشعـر العربـي، ويـؤدون دورا عامـا في هـذا التحـول " – خالـدة سعيد مجلـة الاداب –، فقـد ادركـت الجيوسـي منـذ البدايـة كثيرا مـن العناصر المهمـة المميزة للشعـر الحديث، وقد افـادت كثيرا من تجارب الشعـر العالمي حتى انها وصفت نفسهـا بانهـا وريثة الحضـارة الانسانية. لكنها ستصاب بخيبـة، فالشعـرراح يسير بطريق مسـدود، وكان لا بد لهـا ان تكتشف طريـق آخر سيقودها اليـه كتاب " الشعر والتجربة " للشاعر الامريكي الشهير أرشيبلد ماكليش، فقـررت ان تترجمـه الى العربيـة ليصدرعـام ١٩٦٣، ولتـدرك مـن خلاله ان " عمـل الشاعر ليـس في الانتظار لكـي تتجمـع الصرخة من تلقـاء نفسها في حلقـة، بل إن عمله هـو ان يتصارع مع صمت العـالم ومع ما كان خلوا مـن المعنى فيـه، ويضطـره الى أن يكـون ذا معنى، إلى أن يتمكـن مـن جعـل الصمت يجيـب، وجعـل اللاوجود موجـودا. انـه عمـل ياخذ علـى عاتقـه أن يعـرف العالم لا عـن طريـق التأويـل أو الايضـاح أو البرهـان، ولكن مباشـرة كمـا يعرف الانسـان التفاح في فمـه " – الشعر والتجربـة ترجمـة سلمى الخضـراء الجيوسي –. ظلت تؤمـن ان الشعـر يصنع لا مـن الكلمات، بل مـن الافكار، وهـو يدعونا الى: " اكتشـاف انفسنا فيه ووجودنا الذي رفض الاستسلام، بل أصر على البوح.. ونحن اذ نواجه انفسنـا ونصادمهـا فلا شيء كالشعـر يغوص ليكشف ما دفنـاه في اعماقنـا عبر الزمـن " – الجيوسي الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث ترجمة عبد الواحد لؤلـؤة –. ولهذا كان لابد مـن العودة من جديد إلى الشعر لتصـدر ديوانها الثاني " صفونا مـع الدهر " عام ٢٠٢١، فتجد نفسها من جديد تجلس قبالة الصورة التي تجمعها مـع ادونيس ونـازك الملائكـة ومحمد المغـوط ويوسف الخـال وفدوى طوقـان، تتذكـر جلسـات الخميس التي كانت تقيمها مجلة شعر في الستينيات وحوارات الحداثة والحرية، وخلافاتها الودودة مع اقطاب مجلة شعر حول ضرورة انتماء الشاعرلمحيطه:

نحن نهوى رملها المحموم والريح العنية
وبلاياها، ونهوى يتمنا فيها
ونرضاها مماتً
واليها سوف نمضي
كلما ضعنا مع الغربة نمضي
كلما دلّ على اهدابنا كبرُ الحياة

– من ديوان العودة الى النبع الحالم –.

وجدت في رباعية الاسكندرية للبريطاني لورانس داريل نظرة فاحصة للحـب في الزمن الحديث، قررت ترجمتها الى العربية، لكنها توقفت عند الاجزاء الاولى من الرواية "جوستين" و"بالتازار"، قالت ان لورنس داريل جعلها تـرى الحياة مـن زوايا مختلفـة. تعلقـت بالفلسفة وعلم النفس قرات فرويد ونيبتشه وافلاطون وتاثرت بكتابات عـالم النفـس الالماني اريك فـروم فترجمت لـه " المجتمع المعافى " الذي نشرت منه فصول في عدد من المجلات.

تقـول انهـا ولـدت في يـوم بـارد ولا تـزال بـرودة هـذا اليـوم تلاحقها عبر المـدن التي عاشـت فيهـا. كان مولد " سلمـى صبحـي الخضـراء الجيوسـي " في العاشـر مـن كانـون الاول عـام ١٩٢٦ في مدينة السلـط الاردنية لأب فلسطينـي وام لبنانيـة درزية، كانـت الابنة الكبرى لعائلـة تتكون من ولد وثلاث بنات. تتذكر ابوها المحامي الـذي الذي رافق الامـير فيصل الذي سيصبـح ملكا فيما بعـد، وكيـف كان مغرما بقـراءة دواويـن الشعر العربي القـديم وكانت الطفلـة الصغيرة تتعجب مـن قدرته على حفـظ الشعر وترديـده اسمـاء غريبة مثل ابـو العتاهية والمعـري وابو فراس الحمـداني والفـرزدق، فيما كانت الأم تقـرأ الروايات بالانكليزية وتجـرب حظها في كتابة الشعـر. مـن عائلتهـا الصغيـرة تعلمت معنـى ان يفتحر الانسـان بعروبته، تقول انها تحـزن كثيرا حين تكتشف ان الكتابـة والنشر والترجمة حالـت دون تكريس نفسها للعمـل السياسـي مثلما كان والدها الـذي تقول انه كرس حياته لفكرة واحدة هي الدفاع عن الوطن.

سترحل العائلة الى مدينة عكا مسقط راس الوالد، هناك تنهـي مرحلتها الابتدائية والمتوسطـة، ستتعرض الفتاة الصغيـرة لاول صدمـة في حياتهـا عندمـا يقتحـم جنود بريطانيون منزلهم ليعتقلوا والدها، ولانها الابنة الكبرى فقـد كانـت تذهب مع امها لزيارة ابيهـا في المعتقل، هناك تنصـت الى حديث المعتقلـين عن ضـرورة تحـرر البلاد وطـرد الاستعمار تشـارك بعد ذلك بـاول مظاهرة وكانت في الحادية عشرة من عمرهـا. تسافر الى القدس لاكمال دراستها الثانوية، تتذكر ان والدها كان يرسل اليها وهو في السجـن مصاريف المدرسة، تدخل الجامعة الامريكية في بـيروت لدراسـة الادب العربـي، في بـيروت تتعرف على يوسـف الخال الـذي يدعوها لجلسـات مجلة شعر. تنشر اولى قصائدها، تتزوج من احد زملائها الذي يعمل في السلـك الدبلوماسي، عـام ١٩٧٠ تحصل على شهادة الدكتـوراه عـن اطروحتهـا "الاتجاهات والحـركات في الشعر العربي الحديث".

مـع التدريس والكتابة والتجوال في مدن العالم، وجدت ان المؤسسـات الثقافيـة العربيـة لا تهتـم بنقـل الانتـاج الثقـافي العربـي الى العـالم، فتقـرر عـام ١٩٧٨ التفرغ لادارة مشـروع اقامتـه جامعـة كولومبيـا لترجمـة كتب الادب العربـي، بعـد سنـوات ستصـدر اول موسوعـة للشعـر العربي الحديث بالإنكليزية، عـام ١٩٨٠ تؤسس "، مشروع "بروتا" الذي هدفت، من خلال إلى تصحيح إلمفاهيـم الخاطئـة لـدى الغرب عـن الحضـارة العربية. أصـدرت ضمـن هذا المشـروع اكثر من اربعـين كتابا من بينهـا إحـدى عشـرة موسوعـة، وكثيـرٌ مـن الترجمات الشعريـة والروائية والقصصيـة. وكان ابرز مشاريعها " الشعـر العربـي الحديـث، " أدب الجزيـرة العربيـة "، "الأدب الفلسطينـي الحديـث"، " المسـرح العربي الحديـث"، " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، " القصة العربية الحديثة"، تدافع من خلال مقالات في الصحافـة الغربيـة عن حـق الادباء العـرب في الحصول على جائزة نوبل، تكتب تقريرا الى الاكاديمية السويدية عـن اعمال نجيـب محفـوظ، وسيكـون التقرير بمثابة شهـادة اعتمدتها اللجنـة في منح الاديـب العربي الكبير جائـزة نوبل عـام ١٩٨٨. عـام ١٩٩٥، تعـود الى مدينة والدهـا عكا، ثم تزور القدس بعد غياب لأكثر من خمسين عامـاً، وهـي تنظـر الى شـوارع مدينتها القديمـة قالت للصحفيين " ما اراه مؤلم جدا ".

عن علاقتها بالكتابة والترجمة قالـت انها تكتب من اجل ايقاظ الذاكرة تكتب ضـدّ النسيان" أكتـب على أمل أن أترك أثراً ما".

كانـت سلمى الخضـراء الجيوسي تبحـث في نفسها عن كثيـر مـن الطرق والمسـارات للتعبـير، كانـت المتعدد في الواحـدة، فهـي شاعـرة وباحثة ومترجمـة وناشطة، لم يكـن ذهابهـا إلى الترجمة من باب الهـروب من الشعر بل كان بـاب البحـث عـن منفذ جديـد تقدم من خلالـه خدمة للثقافـة العربيـة، كتبهـا ومشاريعها حصـدت كثيرا من الجوائـز، وتدرس في الجامعـات وتعرف إقبـالا كبيرا لموضوعاتهـا المرتبطـة أصـلا بالثقافـة العربيـة بـكل اشكالهـا. في كفاحها اليومي مـن أجل أجل صناعة مكان للثقافـة العربيـة لها تحـت الشمس في مجتمعـات تهيمن عليها النظرة العنصرية والفوقية للنتاج الادبي العربي.

تكتـب سلمى الخضـراء الجيوسي بلغـة انكليزية شفافة، وعربية شاعرية وبسرد ثقافي ينتمي إلى الشرق، مدركة أن أفضل جهد تقدمه هو جهدها في خدمة اثقافة العربية.

على مـدى حياتها التي تجـاوزت التسعـين عاما وضعت امام عينها عددا مـن الخطوط الحمر التي رسمت خارطة حياتها:

١– كل ما يتحدث عـن الإقليمية وكأنها وضع نهائي: خط أحمر.

٢– كل مـا يتحدث عـن أيّ تقسيم ولو لشـبر من الوطن: خط أحمر.

٣– كل ما يتحدث عن المذهبية: خط أحمر.

٤– كل مـا يعيق المرأة العربيـة عن دخول الحياة الحرة: خط أحمر.

٥– كل مـا يعيـق الإنسان عندنا مـن الرؤيا الحداثية على كل صعيد: خط أحمر

في مسـاء يشبه مساء الـولادة، ترحل سلمـى الخضراء الجيوسـي في العشرين من نيسـان عام ٢٠٢٣، وتحقق امنيتهـا لتغمض عينيها في الاردن التـي شهدت ولادتها، ونتذكرامنيتها في قصيدتها " الرحيل " التي نشرتها قبل اكثر من " ٦٠ " عاما:

مازال في الثغر الرحيق وفي العيون وفي الدماء
اشواقها، ما زال في القلب التلهف والوجيب
وتوهج الذكرى، فدعني ارتحل قبل الغروب
والحب باق كيفما عبرت بنا سبل القضاء.

سلمى الخضرا الجيوسي وضعت الأدب العربي على خارطة العالم

فخري صالح

في عام ١٩٤٨، عندما وقعت الكارثة وتوزَّع الشعب الفلسطيني إلى المنافي، كانت سلمى الخضرا الجيوسي (١٩٢٨– ٢٠٢٣)، المولودة في مدينة صفد، في العشرين من عمرها. وقد عاش أهلها قبل النكبة في مدينة عكا، ودرست في كلية شميدت الألمانية في مدينة القدس، لترتحل بعد زواجها من دبلوماسي أردني إلى العديد من الدول العربية، وتواصل دراستها في الجامعة الأميركية في بيروت وتدرس الأدبين، العربي والإنجليزي، وجامعة لندن. وتنقلت بين الأردن ولبنان والكويت والسودان والجزائر والولايات المتحدة وكندا. وقد ألقى هذا الارتحال، من بلد إلى بلد، بظلاله على تجربة سلمى الخضرا الشعرية والنقدية، والأدبية بصورة عامة. فقد تفتح وعيها بأثر من النكبة، وانهيار المجتمع الفلسطيني، وتفكُّكه، وتشرده، ودفعها الوعي بالكارثة إلى السعي للتعلُّم والمعرفة وتطوير الذات، وبحثت للمرأة الفلسطينية عن مكان لها تحت شمس في عالم أدار ظهره للفلسطينيين، وخصوصًا للمرأة التي وقع على كاهلها عبء النكبة، إذ كان عليها أن تربي جيلا من المقتلعين والمشردين، الذين ضاعت أرضهم، وجردوا من هويتهم الوطنية. وعلى الرغم من أن سلمى الجيوسي ابنة عائلة برجوازية، وكان والدها صبحي الخضرا أحد أعيان فلسطين، ومن قادة حركتها القومية، إلا أن ذلك لم يخفف من عبء النفي، والاقتلاع، وافتقاد الهوية، العبء الذي شكَّل حياة الفلسطينيين، وصنع أقدارهم، وصاغ وعيهم، وشحذ هويتهم الوطنية، على مدار زهاء قرن من الزمان.

ولا شكَّ أن من عرف سلمى الجيوسي يستطيع أن يلمس في خطابها، وحديثها اليومي، ووعيها الذاتي بفلسطينيتها أولا، وفي كونها امرأة ثانيا، تلك الخيوط المؤسسة التي صاغت تجربتها الشخصية، والأدبية، والثقافية. فهي، وإن اهتمت بالتعريف بالأدب العربي في العالم الناطق بالإنجليزية، تضمر وعيًا نسويًا شديد الوضوح، منطلقة في ذلك من تجربتها الفلسطينية، وسيرتها الشخصية، ومسارها التعليمي والمعرفي. كما أنها نموذج بارز، ومتألق، للمرأة الفلسطينية التي استطاعت أن تتغلَّب على آلام الاقتلاع، وفقدان الوطن، وتواصل العيش في عالم معادٍ، يميز ضد الفلسطينيين، كما يميز ضد المرأة.

إنطلاقًا من هذا الوعي بتجربة سلمى الخضرا الجيوسي، يمكن النظر إلى معظم ما أنجزته، من شعر، ونقد، وبحث، وترجمة، وعمل أكاديمي، وموسوعي... وفي مقدّم ذلك كله، مشروعها الكبير الذي أسسته عام ١٩٨٠ لترجمة الأدب العربي إلى الإنجليزية (بروتا). فقد نشرت مجموعتها الشعرية الأولى "العودة من النبع الحالم" عام ١٩٦٠، ولم تنشر بعدها سوى قصائد متفرقة قامت بجمعها ونشرها عام ٢٠٢١ في عنوان "صفونا مع الدهر" (الدار الأهلية للنشر، عمان). ففي "العودة من النبع الحالم" تتقاطع رياح التغيير في الشعر العربي، في خمسينيات القرن الماضي، مع الرغبة في التطوير الشكلي، والانعتاق من أسر القوالب والتقاليد الشعرية التي كبلت الشعر العربي طوال قرون، وفي إتاحة المجال للفرديَّة الذاتية للتعبير عن نفسها، بفضل الاحتكاك بالشعريات العالمية الوافدة إلى العالم العربي، من خلال الاطلاع الشخصي، أو عبر الترجمة.

وينبغي أن نشير هنا أنَّ سلمى الجيوسي كانت قريبة من جماعة "شعر" في ستينيات القرن الماضي، وقد نشرت بعض قصائدها في مجلة "شعر"، وكذلك مقالاتها النقدية. وهو ما أثَّر، من دون شك، في رؤيتها الشعرية، ووعيها النقدي، ودور الحداثة في الخروج من الهزيمة التي تعرَّض لها الفلسطينيون خاصة، والعرب عامة، في مرحلة النكبة. أما على صعيد الكتابة الشعرية، فيمكن أن نلحظ لدى سلمى الجيوسي تأثيرات الشعراء الرواد، وعلى رأسهم بدر شاكر السياب، الذي ترجع قصائده صداها واضحًا في "العودة من النبع الحالم"، سواء على صعيد الإيقاعات، والنبرة، وحتى الموضوعات. كما يمكن أن نلحظ تواصل عوالم سلمى الشعرية مع شعر مواطنتها الفلسطينية فدوى طوقان (١٩١٧– ٢٠٠٣)، خصوصاً في مجموعتيها الشعريتين: "وحدي مع الأيام" (١٩٥٢)، و"وجدتها" (١٩٥٧)، مع نبرة تموزيَّة خفيضة الصوت حينًا، وعالية أحيانًا أخرى، فلا بدَّ أنها تسربت إليها من احتكاكها بشعر السياب، بصورة أساسية، وكذلك شعر خليل حاوي، وأدونيس، ونذير العظمة. في خضم هذه التأثيرات، والتقاطعات، ورياح التغير التي هبت على القصيدة العربية في خمسينيات القرن الماضي، تسعى الشاعرة إلى التعبير عن فرديَّتها كامرأة عربية تعيش في مجتمع ما قبل حداثي، وفلسطينية تعيش آلام أهلها المنكوبين الذين فقدوا وطنهم وهويتهم.

ويبدو عنوان المجموعة الشعرية "العودة من النبع الحالم" عتبة لفهم التجربة الوجودية التي تنطلق منها قصائد المجموعة، في سعيها إلى تصوير المفارقة التي تسم حياة الفلسطينيين، وانتقالهم من زمن الطمأنينة، وثبات الأرض والجغرافيا تحت أقدامهم، إلى لا يقين المنفى، ورخاوة الوجود كلاجئين، غير مرغوب فيهم، يحاولون لم شظايا حياتهم المهشَّمة.

"نحن من جيل اليتامى، نحن من جيل القلوب الضائعة/ أمنا قد كونتنا من جحيم الأمس، من لوعته/ من تباريح قرون هاجعة./ فإذا ما ولدتنا فوق جفن الفجر، في روعته،/ وتفتحنا وقد أعشى مآقينا السنا/ نحن لم نغتر، لم نهتف هي الدنيا لنا/ حلوة، غرّاء، نشوى، رائعة/ بل عرفنا حظنا/ ورمينا العمر في ميعته/ بين فكي الحياة الجائعة".

رغم أهمية التباشير الأولى لتجربة سلمى الخضرا الجيوسي الشعرية، ورغبتها في كتابة شعر يخالف السائد، ويعيد النظر في أهمية الأوزان، والإيقاعات، وحتى الموضوعات الشعرية، فقد شكَّلت دراستها الأكاديمية في جامعة لندن، وأطروحتها التي قدمتها لنيل شهادة الدكتوراه، ونشرتها في ما بعد، باللغة الإنجليزية، في عنوان Trends and Movements in Modern Arabic Poetry "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث" (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، في مجلدين كبيرين، (١٩٧٧)، انعطافة في حياتها الأدبية والثقافية، وانشغالاتها اللاحقة، مما وضع اسم الشاعرة والناقدة الفلسطينية ضمن كوكبة الأسماء القليلة التي نظَّرت للقصيدة العربية الحديثة، ورسَّخت حضور الشكل الجديد لهذه القصيدة (إحسان عباس، محمد مندور، محمد النويهي، عز الدين إسماعيل، من بين آخرين). فكتابها "الاتجاهات والحركات.." (ترجمه الناقد والمترجم العراقي عبد الواحد لؤلؤة إلى العربية عام ٢٠٠٧)، يدرس تطور الشعر العربي منذ عصر النهضة، حتى بداية سبعينيات القرن الماضي، مؤكدًا التطورات الشكليَّة والانزياحات التي أصابت شكل القصيدة العربية في العصر الحديث، على صعيد النبرة، والإيقاع، والأوزان، والموضوعات.

وترى الباحثة أن التطور الذي أصاب جسد القصيدة العربية لم يكن نابعاً كله من الحاجات والتحولات السياسية والاجتماعية والثقافية، بل كان نابعاً بالأساس من الحاجات الفنية الشكليَّة، وما يمكن أن نسميه الإرهاق الجمالي الذي يصيب جسد القصيدة، فتنحو إلى التغير، والتبدُّل، والبحث للتعبير الشعري عن مسارب جديدة. ولا شكَّ أن نقل عبد الواحد لؤلؤة لهذا الكتاب النقدي الأكاديمي حول الشعر العربي، بعد ثلاثة عقود من نشره بالإنجليزية، يجعلنا نعيد النظر في كثير من الكتابات النقدية التي تلقي الضوء على تطور القصيدة العربية المعاصرة، وعلى طبيعة الانتهاكات الشكلية، وتحولات التعبير الشعري العربي، على مدار ما يقرب من قرن. واللافت أيضا في جهدها الموسوعي وضعها أهم موسوعة عن الأدب الفلسطيني المعاصر، شعرا وسردا، وتعد هذه الموسوعة المرجع الشامل شبه الوحيد للإطلاع على هذا الأدب وقراءة مختارات منه (المؤسسة العربية).

يمكن النظر إلى مسار تجربة سلمى الخضرا الجيوسي الشخصية، والثقافية، بوصفها انخراطاً شاملاً، وسعياً إلى التأثير في الواقع الاجتماعي، والثقافي، والحضاري، للعالم العربي. فهي، إلى جانب كونها شاعرة، وناقدة، مترجمة بارعة، ومحررة لعدد من الموسوعات والأنطولوجيات حول الأدب العربي، التي نشرت باللغة الإنجليزية، وترجم بعضها إلى اللغة العربية. فقد نقلت إلى العربية عددًا من الأعمال الأدبية، والنقدية الكبيرة: "إنجازات الشعر الأميركي في نصف قرن" للويز بوغان (١٩٦٠)، و"إنسانية الإنسان" لرالف بارتون باري (١٩٦١)، و"جوستين" و"بالتازار" (وهما الجزءان الأولان من "رباعية الاسكندرية" للورنس داريل ١٩٦٢).

لكن مأثرتها الكبرى تتمثَّل في أعمالها الموسوعية، وأنطولوجياتها، حول الشعر والثقافة العربيين، التي نشرتها بالإنجليزية عن أهم دور النشر الأكاديمية في العالم. لقد وضعت سلمى بعض جوانب الثقافة العربية، وكذلك الشعر، والقصة، والمسرح، الذي أنجزه العرب المعاصرون، في دائرة الضوء، لقراء اللغة الإنجليزية، في ترجمات جرى إعدادها، وتحريرها، وكتابة مقدمات ضافية لها، بحيث تكون مراجع لا غنى عنها لمن يريد متابعة الاطلاع على الثقافة والأدب العربيين. ويقف على رأس هذه الأعمال الموسوعية كتابها الضخم The Legacy of Muslim Spain (١٩٩٢)، وقد شارك فيه عدد كبير من المختصين بحضارة الأندلس، من أنحاء عديدة من العالم، وكتبت له سلمى مقدمة ضافية تلخص الدور الحضاري العالمي الذي لعبته الأندلس المسلمة طوال ثمانية قرون. وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى العربية، في جزأين، من قبل فريق من المترجمين، بإشراف سلمى الجيوسي، في عنوان "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" (١٩٩٨ مركز دراسات الوحدة العربية)، وشاركت شخصيًّا في ترجمة عدد وافر من دراساته.

إلى جانب هذا الكتاب الشديد الأهمية، قامت الكاتبة والمترجمة والباحثة الراحلة بإعداد أنطولوجيات كبيرة عن "الشعر العربي الحديث" (١٩٨٧)، و"أدب الجزيرة العربية" (١٩٨٨)، و"الأدب الفلسطيني الحديث" (١٩٩٢). و"المسرح العربي الحديث" (١٩٩٥)، و"مسرحيات عربية قصيرة" (٢٠٠٣)، و"الرواية العربية الحديثة" (٢٠٠٤)، إضافة إلى أعمال موسوعية أخرى، وترجمات لروايات ومسرحيات ومجموعات شعرية، أشرفت على ترجمتها، وكتبت مقدمات نقدية متميزة لها. وهي بذلك عملت على وصل الثقافة العربية بثقافات العالم، من خلال الترجمة إلى الإنجليزية، كما فعلت من قبل حين وصلت ثقافات العالم بالثقافة العربية، من خلال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية. لقد أنجزت سلمى، تلك المرأة الفلسطينية العظيمة، للثقافة والأدب العربيين، ما لم تصنعه مؤسسات عربية كبيرة، لديها من المال والإمكانات، أكثر مما حازته سلمى الخضرا الجيوسي.

فازت الجيوسي بجوائز عربية وعالمية عدة، من بينها جائزة الشيخ زايد وجائزة العويس وأخيرا جائزة محمود درويش قبل شهرين.

• عن الاندبندنت

أندلس سلمى الخضراء الجيوسي

محمد علاوة حاجي

بدأَت فكرةُ كتاب "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" (١٩٩٢)، كما تُخبرنا مُحرِّرته سلمى الخضراء الجيوسي في مقدّمته، بينما كانت تجلس على منحدرات طليطلة، مع عدد من أصدقائها في إحدى سنوات الثمانينيات، وقرأ واحدٌ منهم قصيدةً لمحمّد إقبال عن مسجد قرطبة، مترجَمةً إلى اللغة الإنكليزية. لكونها شاعرة مرهفة الحسّ (أصدرَت مجموعتها "العودة من النبع الحالم" سنة ١٩٦٠)، ستستوقفها في قصيدة الشاعر الباكستاني فلسفةُ العشق التي "مسّت شيئاً عميقاً داخلي، وتحوّلت إلى حكمة أهتدي بها، ومبدأ أؤيّده وأستمدّ منه القوّة عندما تبدو الأشياء مستحيلة التحقّق".

كلمات محمّد إقبال، التي "لا تكمن روعتُها في قدرتها على استثارة دموع اللوعة والفراق، رغم أنّها كُتبت لاستحضار ذكرى عظمة الماضي، بل في قدرتها على استنهاض الإرادةِ وتأكيد الحياة والحضّ على البناء"، ستظلّ تتردّد في أذنَي سلمى وهي تقف في قاعة الصلاة الشاسعة بمسجد قرطبة، أو تتأمّل الرقش والمقرنصات على حيطان وسقوف "قصر الحمراء" في غرناطة.

في عام ١٩٨٥، وبينما كانت الأشياء تبدو "مستحيلة التحقّق"، ستنتبه سلمى، بنباهة الباحث صاحب الحس التاريخي، إلى أنّ سنوات قليلةً تفصل عن عام ١٩٩٢، الذي سيتزامن مع مرور خمسمئة عام على سقوط الأندلس (١٥٩٢)، وسيُعيد معه "ذكريات مختلفة لأربعة شعوب": مشاعر القهر والأسى بالنسبة إلى العرب، ونشوة الانتصار النهائي للإسبان، وفرحة "الاكتشاف" الذي غيّر وجه العالم للأميركيّين، وذكريات التهجير والشتات لليهود. تكتب: "كان هذا الإدراك المُفاجئ كافياً ليدفعني إلى مغامرة جديدة، فنهضتُ للعمل".

شرعَت سلمى الخضراء الجيوسي، مع مجموعة من أصدقائها الباحثين والدارسين والمترجمين في البلاد العربية وبريطانيا والولايات المتّحدة الأميركية، في الإعداد لعمل عن الحضارة الإسلامية في إسبانيا العصر الوسيط الأوروبي، وقد وضعوا نصب أعينهم إنجاز مجلّد واحد على الأقل. لكنّ عملاً موسوعيّاً بهذا الحجم يتطلّب، قبل كلّ ذلك، توفير دعم لتحقيقه. وهكذا، راحت تتّصل بمؤسّسة عربية بعد أخرى، تُفسّر معنى ١٩٩٢، وتشرح ضرورة إصدار كتاب شامل عن "حضارة عظيمة وصلت في الأندلس إلى قمّة التمدُّن في العصور الوسطى".

بنبرة أسى، تستعيد سلمى خيبات تلك الرحلة؛ حيث كتبت في مقدّمة عملها: "تفاصيل هذا السعي الطويل تفاصيل أليمة لم تزل ذكراها، حتى بعد أن صدر الكتاب بالإنكليزية ونال نجاحاً لا يُضاهى، تحزّ في نفسي بقسوة ومرارة، لأنّها تُشير إلى أنّ ثمّة شيئاً سادراً، غافلاً، مضطرباً، مشوّشاً في ثقافتنا العربية الراهنة التي ترضى، بصَمتها على العدوان الثقافي وعلى هيمنة الآخر الحضارية، أن تظلّ منسية مجهولة ‹مطروحة على هامش التاريخ›". الخبر الجيّد أنّ هذا السعي الطويل انتهى بتبنّي "صندوق الآغا خان للثقافة" للمشروع عام ١٩٩٠.

صدر الكتابُ أخيراً عام ١٩٩٢، وكانت النتيجةُ عملاً موسوعيّاً يُغطّي الجوانب الأساسية في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ويُبرز تراثها العريق، ويُضيء تأثيراتها الكبيرة. وكان من العوامل التي أسهمت في إنجاز المشروع (لحسن الحظ كما تكتب الجيوسي) ظهور عدد كبير من الباحثين في إسبانيا والغرب خلال تلك السنوات "ممّن أدركوا الأهمّية الكبيرة لبروز الإسلام في العصر الوسيط وعلاقته بتواصل الحضارة البشرية". لقد قطع هؤلاء الباحثون النزيهون مع تجاهُل استمرّ طويلاً لحضور العرب والمسلمين والمعرَّبين في إسبانيا خلال القرون الوسطى؛ تجاهُلٌ لا تتردّد الجيوسي في وصفه بالجريمة التاريخية.

وهذه "الجريمة التاريخية" كانت من بين ما حاولت الجيوسي التصدّي له عبر مشروع مؤسَّساتي بدأ أوّلاً عام ١٩٨٠ بمؤسّسة "بروتا" التي ركّزت على الترجمة إلى الإنكليزية والتأليف بها، ثمّ رفدته "رابطة الشرق والغرب" التي وُلدت عام ١٩٩٢ مع صدور الكتاب؛ فبالإضافة إلى إشاعة المعرفة الجديدة عن التراث العربي- الإسلامي، هدف المشروع إلى "تغيير المواقف والرؤى العامّة عن هذا التراث الضخم من الإنجاز الإبداعي والمعرفي"، و"التأكيد على وحدة الإبداع الإنساني وعدم قابليّته للتجزئة".

نُشر الكتاب باللغة الإنكليزية تحت عنوان "The Legacy of Muslim Spain"، ثمّ تُرجم لاحقاً إلى العربية وصدر عن "مركز دراسات الوحدة العربية" في بيروت عام ١٩٩٨، وهو يتألّف من جزأين: خُصّص أوّلهما (قرابة ٨٠٠ صفحة) لخمسة محاور؛ هي: التاريخ السياسي، والأقلّيات، والمدن الأندلسية، واللغة والشعر والأدب، والموسيقى، وثانيهما (قرابة ألف صفحة) لستّة محاور؛ هي: الفنّ والعمارة، والتاريخ الاجتماعي وأسلوب المعيشة، والتاريخ الاقتصادي، والفلسفة، والدراسات الدينية، والعلم والتكنولوجيا والزراعة. وبهذا، يُقدّم الكتابُ إضاءةً شاملة على فترة الوجود العربي الإسلامي في الأندلس التي استمرّت قرابة ثمانية قرون.

يبدأ الكتابُ بدراسة شاملة عن تاريخ الأندلس السياسي من ٩٢ إلى ٧١١م، أعدّها الباحث في الدراسات الأندلسية محمود مكّي (١٩٢٩ – ٢٠١٣)، مؤرّخاً لتلك الفترة، بدءاً من فتح شمال أفريقيا ثمّ الأندلس وانتهاءً بسقوط غرناطة في كانون الأوّل/ يناير ١٥٩٢. ليخلص، في نهاية الدراسة (قرابة مئة صفحة) إلى أنّ الثقافة الأندلسية رفدت الثقافة الإسبانية عن طريق الترجمة، وكانت من بين الأُسُس التي قامت عليها النهضة الأوروبية.

يستمرّ الكتابُ بعدد كبير من الدراسات لباحثين عرب وأجانب (الملاحَظ أنّ الدراسة الواحدة منها تشكّل كتاباً صغير الحجم)؛ تَحضر بينها دراستان لسلمى الخضراء الجيوسي؛ الأولى بعنوان "الشعر الأندلسي: العصر الذهبي"، رأت فيها أنّ نقطة الانطلاق الأولى في دراسة الشعر الأندلسي ينبغي أن تأخذ في الاعتبار أنّه ذو علاقة شديدة الوثوق بالشعر العربي في المشرق، ولكن في الوقت نفسه يجب الحذر من الاعتقاد بأنّ نتاج الشعراء الأندلسيّين لم يكن غير انعكاس لتأثير شعراء المشرق عليه، فـ"الشعر العربي في الغرب لم يكن محض تقليد وإعادة إنتاج واعية لنظيره في المشرق". وتُدلّل الباحثة على ذلك بالقول: "عندما تنجح تجربة في الشعر (أو في أيّ فنّ من الفنون) وتنتشر على نطاق واسع، فإنّ ذلك يحدث، أوّلاً، لأنّ ذلك الفنّ نفسَه كان مستعدّاً لذلك، ولأنّ أولئك الذين يتولّونه كانوا قادرين، فنّياً ونفسياً، على تمثّل التجربة الجديدة، وثانياً، لأنّ تلك التجربة تُناسب المزاج، أو تُرضي التوقّعات والحاجات والذوق لدى جمهور الشعر في ذلك الزمن".

ولأنّ الشعر الأندلسي كتبه أناس يعيشون على حدود ثقافة مختلفة، تفحص الجيوسي، في دراستها، إمكانية النظر إليه على أنّه يقع في باب "أدب الحدود": هل يسعنا النظر إلى الشعر الأندلسي الرسمي بوصفه أدباً معزولاً، وُجد في محيط غريب، تتسرّب إليه على الدوام نوازع ثقافة مختلفة ولغة مختلفة، ويشعر بالولاء نحو أكثر من ثقافة؟ تجيب: "يبدو لي أنّ الأدب الأندلسي الرسمي لا يعكس سوى القليل الذي يدلّ على أنّه كان أدب حدود ذا هوية معزولة، بل يبدو أنّه أدبٌ كان كاتبوه يحسّون بالاطمئنان في أوطانهم".

تستعرض الباحثة عدداً من التجارب الشعرية في الأندلس (يحيى الغزال، وابن عبد ربّه، ويوسف بن هارون الرمادي، وابن هانئ، وابن درّاج القسطلي، وابن شهيد الأندلسي، وابن زيدون، وأبو بكر محمّد بن عمّار، والمعتمد بن عبّاد) متوقّفة عند مختلف خصائصها الفنّية، ومُسجِّلة، بين الحين والآخر ملاحظات وآراء نقدية؛ من بينها ملاحَظةٌ لافتة حول شعر الحبّ في الأندلس، مفادُها أنّ "الأندلس لم تُنجب شاعر حُبّ عظيم أشبهَ بشعراء الحبّ الأمويّين الكبار، تفرّد بالموضوع وكرّس له جلّ موهبته"، وأخرى تتعلّق بقصّة حبّ ابن زيدون لولّادة، والتي استهوت كثيراً من دارسي الشعر الأندلسي؛ إذ تعتبرها "واحدة من أبسط قصص الحبّ في الأدب العربي".

وتخلص الدراسة (قرابة ستّين صفحة) إلى أنّه ينبغي النظر إلى الشعر الأندلسي على أنّه "ذو مسارب عديدة، تظلّ فيه التيارات الفنّية المختلفة مفتوحة تنشط معاً، فالميل نحو العبارة المبسّطة والتوجّه الأكثر مباشرة سوف يظهر في الشعر اللاحق، عند ابن سهل مثلاً، والأمير يوسف الغرناطي (القرن الخامس عشر الميلادي) وغيره، والميل نحو الصناعة والوصف الدقيق والمنمَّق سوف يستمرّ ويعرف تطوّراً مبدعاً حتى يبلغ ذروة جديدة عند ابن خفاجة".

ويُمثّل ابن خفاجة موضوع الدراسة الثانية التي تحمل عنوان "شعر الطبيعة في الأندلس وظهور ابن خفاجة"؛ وتستهلّها بإضاءة على شعر الطبيعة في الأندلس منذ البداية وظهور أنواع ضمن هذا النمط الشعري (مثل النُّوريات والرَّوْضيات والرَّبيعيات)، وصولاً إلى ابن خفاجة الذي أحدث تجاوُزاً في هذا النوع الشعري؛ حيث ترى أنّ ظهوره مثّل انعطافة جديدة في الشعر الأندلسي، على مستويات اللغة والأسلوب والمفردات وبنية الجملة، وهو ما يشكّل "تطوُّراً لغوياً مهمّاً وشديد الوضوح". هذا على صعيد اللغة، أمّا على صعيد المضمون، فتكتب: "في شعر ابن خفاجة ثمّة إدراكٌ حسّي لا للتجربة وحدها، بل للفكرة كذلك، لأنّ بعض أشعاره هي نتيجة لموقف تأمُّلي، لفكرة نشأت عن تجربة مستقاة وُلدت من حالته الذهنية، فتبنّاها وتفاعَل معها. في مثل هذه الأوضاع تتحوّل الأفكار عنده إلى تجربة وجودية، ويتمّ إدراكها شعرياً والتعبير عنها بلغة وصُور حسيّة. ومع ذلك، تتحكّم في هذا كلّه صرامة فنّية تُحافظ على فضاء القصيدة المكتفي بذاته، وتذبّ عنه الميوعة العاطفية والمشاعر الفجّة".

وتخلص الجيوسي، في دراستها (قرابة أربعين صفحة) إلى أنّ شعر ابن خفاجة "إنْ لم يكُن دينيّاً بشكل مباشر، فإنّه في أفضل أمثلته ميتافيزيقيٌّ أحياناً، ذو حساسية بالغة العمق والحدّة بالعالم، بالمجهول، بسرّ عناصر الكون، بسلطان الأجرام السماوية، بأسرار الفصول، وجلال الطبيعة المُرعب". تعكس هذه الكلمات انحيازاً واضحاً لابن خفاجة، لكنّه قد يُمثّل ردّاً على آراء نقدية ترى أنّ الشعر الأندلسي بعامّة فقيرٌ جدّاً من الناحية الفكرية؛ وهي الآراء التي تعتبر سلمى الخضراء الجيوسي أنّها تصوِّر سوء الفهم السائد حيال هذا الجزء من الشعر العربي.

• عن العربي الجديد

سلمى الخضراء الجيوسي... إمرأة مخلوقة للصفوف الأولى

د. رشيد العناني

أدهشني أن تموت سلمى الخضراء الجيوسي. حقاً أن الموت حق علينا جميعاً، وأنها كانت في الخامسة والتسعين من عمرها، وهو عمر لا يطمح إليه أغلبنا. لكن الجيوسي كان لها حضور طاغ يصعب تصور إمكانية غيابه غياباً تاماً. كان حضورها طاغياً في إنجازاتها الأكاديمية في خدمة الأدب العربي، كما كان حضوراً طاغياً أيضاً في أي مناسبة حضرتها شخصياً. كانت امرأة مخلوقة للصفوف الأولى، ليس فقط بعملها الدائب ومنجزها الأكاديمي والأدبي، ولكن بتركيبتها الشخصية الساحرة التي لا تقبل الرفض كإجابة على ما تطلب، ولكن أيضاً لأن سحر شخصيتها كان يجعل عدم القبول أو الاعتذار عن طلب أو تكليف منها أمراً ليس في إمكان الكثيرين. كانت تعرف كيف تجعل من الإصرار والإلحاح والمعاودة فناً جميلاً محبباً، لو مارسه غيرها لكان مصدر إزعاج ومدعاة لصرف الملحّين خائبين. هذه الشخصية هي ما سهّل لها استقطاب الدعم المالي لمشروعاتها النبيلة، وتجنيد الكُتّاب والمترجمين والأكاديميين في خدمة مشروعها الأكبر في ترجمة ونشر الأدب العربي باللغة الإنجليزية، (بروتا). التقيت سلمى الجيوسي لأول مرة حين دعوناها لإلقاء البحث الافتتاحي في مؤتمر كبير نظمناه في جامعة إكستر Exeter في خريف عام ١٩٩٤ حول "التقليد والحداثة في اللغة والأدب العربيين"، حيث تكلمت في موضوعها الأثير "التقليد والحداثة في الشعر العربي"، والذي نُشر لاحقاً (لندن ١٩٩٦) ضمن كتاب أعددناه عن أعمال المؤتمر. أذكر أني كنت رئيس الجلسة وأنها تمادت في تجاوز الوقت المخصص لها، رغم أريحيته كونها متحدثاً رئيسياً، وأن كل محاولاتي المستميتة والمتكررة لتذكيرها بوجوب الانتهاء، باءت بالفشل الذريع، أمام عنادها وإصرارها، ولكن قبل ذلك سحر شخصيتها، الذي لم أملك أمامه ولا ملك جمهور الحاضرين إلا الغفران الكامل. وإن كان هذا العناد وهذا السحر قد كسبا لها دقائق إضافية عدة في ذلك المؤتمر (وفي غيره بلا شك)، فإنها هي الخلال ذاتها التي جاءت لها بمكاسب أهم كثيراً في مشروعاتها الأدبية الواسعة كما أسلفت.

ليس من السهل تصنيف إرث الجيوسي تصنيفاً تراتبياً. وليس من السهل التنبؤ بما يصمد منه لاختبار الزمن وما تطويه الأيام ضمن ما تطوي. إلا أنه إن سألني سائل اليوم سؤالاً في هذا المضمون، فإني شخصياً لن أتردد في ترشيح دراستها "الشعر العربي الحديث: حركاته واتجاهاته" Trends and Movements in Modern Arabic Poetry الصادرة عام ١٩٧٧ في اللغة الإنجليزية عن دار بريل، والذي صدرت لها ترجمة عربية في عام ٢٠٠٧ عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت. قام الكتاب على أساس من أطروحتها للدكتوراه التي كانت أنجزتها قبل سنوات في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعة لندن. يغطي هذا الكتاب الموسوعي الواقع في مجلدين والذي تتجاوز صفحاته الثمانمائة – تطور الشعر العربي من أواخر القرن التاسع عشر وحتى آخر اتجاهاته وقت إجراء الدراسة في فترة الستينات من القرن الماضي، التي شهدت تحولات جذرية في هذا الفن القديم قدم اللغة العربية ذاتها. حين كنت أدرِّس مادة الشعر العربي الحديث للطلاب الإنجليز كان هذا الكتاب مرجعي الأول، وكان يتصدر القائمة الببليوغرافية التي أزود بها طلابي لإعانتهم على القراءة والبحث في الموضوع. ولا أشك أنه لا يزال يحتل المكان نفسه لدى مدرسي المادة اليوم مع شيء من الحسرة، إنه ليس هناك مجلد ثالث يغطي ما حدث في الشعر العربي من ستينات القرن الماضي إلى أوائل القرن الحالي.

هذا في رأيي الإنجاز الأكبر والأبقى للجيوسي؛ فهو إنجاز بحثي كبير استغرق سنوات طويلة من البحث المنفرد والعكوف على مصادر ومراجع الشعر العربي ومدارس النقد، قديمها وحديثها، وقد صدر في وقت كانت تعزّ فيه مثل تلك الدراسات الشاملة، ليس فقط في اللغة الإنجليزية بل والعربية أيضاً. لكن الأدب العربي يدين للجيوسي بما هو أكثر من ذلك، ويدين لها أيضاً الآلاف من قراء هذا الأدب ودارسيه ومدرِّسيه في اللغة الإنجليزية؛ إذ إنها أنفقت قسماً كبيراً من حياتها للتعريف بذلك الأدب وأعلامه وروائع نصوصه، خاصة الحديث منها، عن طريق الترجمة والتقديم والتحرير. كانت تضطلع شخصياً بالترجمة كما فعلت على سبيل المثال في ترجمتها في عام ١٩٨٢، بالاشتراك مع المستعرب البريطاني ترفور ليجاسيك، لرواية إميل حبيبي الشهيرة، "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل". إلا أن الجهد الأكبر للجيوسي في مجال الترجمة كان في عملها الجماعي من خلال المشروع الذي عُرف باسم "بروتا" PROTA الكلمة المؤلفة حروفها من الاسم الكامل في الإنجليزية "مشروع الترجمة من العربية الذي أسسته الجيوسي في ١٩٨٠ واستقطبت للعمل فيه عبر عقود عدة مجموعات متميزة من الأكاديميين ومترجمي الأدب والمؤلفين، مستغلة مهاراتها الشخصية وصبرها الطويل وعلاقاتها المتشعبة وقدرتها على استجلاب الدعم المالي للبحث والنشر من مصادر متعددة. اتسم هذا المشروع الكبير بصفة خاصة بنشر الأنتولوجيات أو بعبارة أخرى المختارات أو المنتخبات، تمييزاً عن الأعمال المفردة. وهي من أصلح سبل الترجمة والنشر في استهدافها تقديماً عريضاً لنوع أدبي أو فترة بعينها أو أدب قومي لجمهور قراء لا يعرفون عنه شيئاً، بدلاً من التركيز على كاتب بعينه أو نص منفرد.

كان من بواكير تلك المنتخبات مجلد فيما يقارب الستمائة صفحة نُشر في ١٩٨٨ عن دار كيجان بول اللندنية برعاية جامعة الملك سعود في الرياض بعنوان The Literature of Modern Arabia ضاماً بين غلافيه أعمالاً شعرية وقصصية لما لا يقل عن ٩٥ كاتباً من السعودية واليمن وسائر أنحاء شبه الجزيرة العربية. كان عملاً رائداً في الترجمة والتعريف بأدب الجزيرة العربية في وقت كان العالم لا يقرن اسم شبه الجزيرة بشيء سوى النفط. ثم تتالت المنتخبات المترجمة. فمنها واحد عن "الشعر العربي الحديث"، وآخر عن "الأدب الفلسطيني الحديث"، وثالث عن "المسرح العربي الحديث" أسعدتني المشاركة فيه بترجمة لمسرحية ألفريد فرج ذائعة الصيت "علي جناح التبريزي وتابعه قفة"، وغير هذا من المنتخبات والأعمال المنفردة التي صدرت عن كبريات دور النشر الجامعية مثل "مطبعة جامعة كولومبيا" و"مطبعة جامعة إنديانا" وغيرها والتي تتالت من الثمانينات وعلى مدى العقود الثلاثة التالية.

كتبت سلمى الجيوسي بعض الشعر ونشرته، على أنني لا أظن أن شعرها مما يبقى مع ما يبقى من آثارها. ولعلها ما كانت لتخالفني الرأي وهي المتخصصة الوثيقة بالشعر العربي الحديث. صنّفها الناقد والأكاديمي المصري مصطفى بدوي في مختاراته من الشعر العربي الحديث (أوكسفورد – بيروت ١٩٦٩) باعتبارها من أتباع الرومانسية أو من ممارسي الأسلوب الرومانسي في الشعر بعد انقضاء عصره. وهو تصنيف أوافقه الرأي فيه تماماً. ولنختمْ هذه المقالة الاحتفائية بالكاتبة الراحلة بالمقطع الأول من قصيدة لها بعنوان "المدينة والفجر"

لكل مدينة في الفجر ساعة طهرها الساحر
فلو ضجّت لياليها
ولو صخبت مقاهيها
ولو سالت دنانُ الخمر رجساً في سواقيها
فعند الفجر تلقاها
وثوبُ الطهر يغشاها
كأن الليل لم يرقص على مصباحها الساكر

• عن الشرق الاوسط

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام
والثقافة والفنون

سلمى الخضراء الجيوسي..
مؤرّخة وناقدة للحداثة الشعرية العربية

أنس الأسعد

الكلام عن إسهامات الشاعرة والناقدة والمترجمة الفلسطينية سلمى الخضراء الجيوسي، التي رحلت عن عالمنا أوّل أمس الخميس في عمّان، عن خمسة وتسعين عاماً (على اعتبار أنها وُلدت عام ١٩٢٦)، متفرّعٌ ومتداخِل بدقّة؛ حيثُ لا يمكنُ أن تفيه العُجالات الصحافية تمام حقّه، خصوصاً لو تحدّثنا عن شقّه الأكاديمي.

لكنّ ما يهمّنا في هذه السطور هو أن نحدّد ظاهرةً بعينها من مُحيط اشتغالاتها، وننظر في تناوُل الجيوسي لها؛ محاولين، في الوقت نفسه، ألّا يؤدّي هذا التحديد الذي اخترناه، إلى تحجيم سيرة امتدّ إنتاجُها أبعد بكثير ممّا سنشير إليه. لذا نجدُنا معنيّين بقراءة صاحبة "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث" (صدر بالإنكليزية أوّلاً عام ١٩٧٧، ثم صدر بترجمة عبد الواحد لؤلؤة عام ٢٠٠١) للمجلّات الثقافية خلال عَقدي خمسينيات وستّينيات القرن الماضي، وكيف نظرَت إلى دور الحركة الصحافية في ترسيم تيارات الحداثة الشعرية وتحديد خلفياتها.

ولما كانت الجيوسي في كتابها المذكور تُعالج هذه الظاهرة تأريخياً، فإنّها بالمقابل شحذت كلامها بالكثير من النقد، وهذه حمولةٌ لا بدّ من الرجوع إليها، لأنّها تُضيف إلينا – نحن المشتغلين في حقل الصحافة الثقافية – أيّما إضافة، كونها قراءة على حدود الأكاديمي والعام البَينيَّة؛ ولأننا – إنْ جاز القول – امتدادٌ، بشكل أو بآخر، لهذا "التراث" القريب الذي أسهمت فيه، ولم تقتصر على نقده وحسب.

"مجلّتان طليعيّتان"، تحت هذا العنوان أفردت الناقدة باباً في مؤلّفها المرجعي (٩١٥ صفحة) للوقوف على تجربة مجلّتَي "الآداب" و"شعر"؛ مقتصرةً في معالجتها التأريخية/ النقدية على هذين الاسمين اللذين يُنظر إليهما، في يومنا الراهن، كتجربتين مُكرّستين في صدارة المشهد، كلّما أعدنا الحديث عن سيرة الحداثة العربية نقداً وشعراً.

تضع الجيوسي (خريجة "الجامعة الأميركية" في بيروت) اليدَ على الخلفية الاجتماعية التي كان يشهدها لبنان في تلك المرحلة؛ تقاطعاتٌ عديدة، بدءاً من الرخاء الاقتصادي والحرّيات الاجتماعية، وصولاً إلى التنوّع في المؤسّسات التعليمية والمَناعة ضدّ طغيان لون واحد من الاتجاهات الفكرية. كلّ ما سبق جعل من بيروت – لا القاهرة – وللمرّة الأولى في تاريخ العرب الحديث "مقصد المفكّرين العرب ومكان لقاءاتهم".

على ضوء هذه الأرضية رأت مجلّة "الآداب" النورَ عام ١٩٥٣، على يد القاصّ والمترجم سهيل إدريس (١٩٢٥ – ٢٠٠٨)، والذي تصفه الجيوسي بأنه "عميق الجذور في تراث الثقافة العربية والإسلامية". وبهاجس المؤرّخ المشغول بالسرديات الكبرى، أوّل ما تلتفت صاحبة "القدس مدينتي" (٢٠٠٥) إلى الإطار الخطابي للمجلّة، والتي سيكون لها إسهامات بارزة ضمن أعدادها، كما تُنوّه بانشغال المجلّة بـ"الخطّ المُلتزم والقومية العربية"، وتعود إلى عدد كانون الثاني/ يناير ١٩٥٥ من "الآداب"، الذي ترى فيه "أفضل مجموعة من المقالات عن تاريخ الشعر الحديث في أغلب الأقطار العربية".

لكنّ الجيوسي تعمّق عملية التأريخ في كتابها، مُشيرةً إلى ما استوعبته المجلّة من تقنيات الحوار، والتي من شأنها أن تدلّ أيّ عمل ثقافي إلى طريقة يسمع فيها صدى كلمته. ومن هنا اقترحت المجلّة – حينها – أن تُخصص باباً نقدياً في كلّ عدد جديد، لملفّات وموادّ العدد السابق؛ بالإضافة إلى تشجيعها المواهب والتجارب العربية الجديدة، وتمكينها من النشر عبر اعتمادها المُراسلة التي كانت طريقة ناجعة. وبتضافر كلّ هذه الأسباب، تحوّلت المجلّة، وفقاً للجيوسي، إلى "صوت المرحلة".

من جهة أخرى، لم تتردّد الجيوسي في نقد المجلّة، لتراخيها أحياناً في نشر ما وصفته بـ"الميوعة العاطفية"، وتراجُع مستواها النقدي مع ما انتاب أداءها من "مناقشات غير علمية، ومقالات تكشف عن تحيُّز واضح أو عدواني، ضدّ شخصية ما، أو أخلاق كتّاب وشعراء آخرين".

نبقى مع بيروت، حيث صاغت سلمى الخضراء بعضاً من وعيها الثقافي، والذي أسّست لبناته أوّلاً في كنف أسرة مثقفة ومهمومة بالشأن العام، وبتأثير مدينتَين أساسيّتين في تكوينها هُما القدس وعكا. وربّما خير تصوّر يُعيننا على فَهْم الجوّ المديني في فلسطين آنذاك، هو ما ذهبت إليه الباحثة الفلسطينية منار حسن في كتابها الأخير "المغيّبات: النساء والمدن الفلسطينية حتى سنة ١٩٤٨" (٢٠٢٣)، والذي تنقُض فيه "المخيال الريفي" وصورة "فلسطين الفلاحية"، لصالح سردية أكثر تمدُّناً، لم يقطع وتيرتها إلّا الاستيطان الاستعماري المتمثّل في نكبة عام ١٩٤٨.

بهذا يُمكننا القول إنّ الجوّ المتمدّن هو ما صنع شخصية الجيوسي العلمانية المُتحرّرة والنقيضة للتعصّب، وهذا ما استعادته في أكثر من محطّة خلال مسيرتها الحياتية. ونذكر منها على سبيل المثال أثناء عملها في جامعة الخرطوم، وإقامتها في السودان خلال سنوات الثمانينيات، حيث أتيح لها هناك أن تلتقي بالمفكّر محمود محمد طه، وتطلعَ على أفكاره حول "الفكرة الجمهورية"، ورغم محاولته أكثر من مرّة في أن يكسبها لصالح حركته "التجديدية"، إلّا أنها ظلّت محافظة على مسافة نقدية من رؤيته الدينية، مُدركةً إلى أي مدى يُمكن أن يصل، قبل أن يُنفّذ بحقّه حُكم الإعدام عام ١٩٨٥.

وبالتالي، يصعب أن نصفَ تجربة الجيوسي مع بيروت بأنها "بدايات"، على غرار ما قرأه الناقد الأميركي روبن كريسويل في تجربة أدونيس، ومن ورائه مجلة "شعر"، وذلك في كتابه "مدينة البدايات: الحداثة الشعرية في بيروت" (٢٠١٩). وهذه الصعوبة متأتّية، من كون تجربة الجيوسي المُشتبكة مع الحداثة، وعلى العكس تماماً من تجربة أدونيس، لا تقوم على "القطيعة" في تعاملُها مع حدود المكان والزمان، بل تنحاز إلى فهم جدلي عنهما. كما أنّها لا تستعجل تأسيس "بدايات" من دون غاية ما، أو فقط من أجل أن تُعلّل قطيعتها بـ"ضرورة الانتهاء" من أعباء متقادمة، وآن أوانُ "نعيها" كيفما اتّفق. عند هذا الحدّ، وأمام تسارُع المتحوّل، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، يُصبحُ لزاماً تأمُّل تراث الجيوسي بوصفه ثابتاً حميداً.

نعود إلى بيروت وثاني مجلّاتها، "شعر"، التي رأت النور عام ١٩٥٧، على يد الشاعر يوسف الخال (١٩١٦ – ١٩٨٧)، وقد شاركت الراحلة في أماسي الخميس الشعري للمجلّة، كما لفتت في كتابها إلى حماسة هيئة تحريرها لترجمة تجارب وأسماء مثل ت. س. إليوت، وعزرا باوند، وسان جون بيرس، على حساب آخرين مثل إيلوار وأراغون اللذين تُرجما لاحقاً، بعد سنوات من التأسيس؛ حيث تَرجَم عصام محفوظ قصائد لإيلوار في العدد ٢٧ (صيف ١٩٦٣)، كما ترجمت هيئة تحرير "شعر" لأراغون في العددين ٣١ و٣٢ (صيف – خريف ١٩٦٤).

وتذهب سلمى الخضراء الجيوسي إلى أنّ "شعر" قد خلَفَت "أبولو" (أسّسها أحمد زكي أبو شادي عام ١٩٣٢)، لكنّ الوضع الشعري كان قد تغيّر عمّا كان عليه، وهذا جاء لحساب الخال وأصحابه، تكتب: "عندما ظهرت ‹شعر› إلى الوجود، ألفت أمامها حركةً طليعية في أوجها، تشقّ طريقها نحو رؤية جماليةٍ أشدّ وضوحاً، فتجرّدت لدعمها وتوجيهها، محاولةً بلوغ ذلك من دون فكر مذهبيّ منظّم، أو عاطفية غَوغائية، أو إجلال للماضي، أو لما تبقّى من ذلك الإيمان شبه الصوفيّ بجمال مثاليّ، كان يشكّل جانباً من تراث الثلاثينيات".

ورغم أنّ الراحلة أشادت في كتابها بتخصيص "شعر" أبواباً للنقد التطبيقي أكثر تحديداً من "الآداب"، خاصة أنّ هذه الأخيرة، وفقاً للجيوسي، راحت تعرض مختلف المفهومات الجمالية عبر "نشر مقالات متضاربة حول الحركة الشعرية، وهذا ما سمح للأفكار التقليدية أن تؤكّد وجودها". في المقابل كانت "شعر" تتعرّض، بمحرّريها وأتباعها، إلى هجمات رأت أنّها تتّخذ مواقف هدّامة من المدّ القومي العربي، ولعلّ أبرزها مقال الناقد المصري رجاء النقّاش، والذي حمل عنوان "هل للشعر العربي الجديد فلسفة؟" ("الآداب"، آذار/ مارس ١٩٦٣).

وكما التقطت الجيوسي مواطن الضعف في صفحات "الآداب"، نبّهت إلى ما اعترى "شعر" وهيئة تحريرها من قلّة حماسة ونقص اطّلاع على الأدب العربي القديم، كما أنّ "أفكارهم عن اللغة الفصيحة وإصرارهم على جمودها، وعلى حيوية العامية، تبدو متناقضة مع الشعر الذي كتبه الخال وأدونيس... فكيف يتأتّى لهؤلاء الشعراء أن يرغبوا في تدمير ما يصنعون؟". تُنهي الجيوسي حديثها، ببيان يوسف الخال الذي أعلن فيه توقّف "شعر" عند عدد صيف – خريف ١٩٦٤، وتُشيّع صاحب "البئر المهجورة" بموقف نقدي مُركّب ما بين النظر إلى التطوّر الشعري في سياقه الجدلي بين النهضة والحداثة من جهة، وبين تدليلها، من جهة أخرى، على أنّ بذور الحداثة تأصّلت ونمت مع شعراء من خارج نواة "شعر" الأولى كصلاح عبد الصبور، وتوفيق صايغ، وحتى بدر شاكر السيّاب.

برحيل سلمى الخضراء الجيوسي تفقد الحداثة العربية اسماً بارزاً من جيل الروّاد، وشخصية عزّ نظيرُها ظلّت مهمومة حتى أيامها الأخيرة بالأدب العربي نقداً وشعراً وترجمة. ولئن تناولنا مقاربتها لعقدَي الخمسينيات والستّينيات بالذات، فليس حنيناً إلى ماضٍ قد مضى (وإن كنا نكابر لو لم نُظهر أسفاً أو تعاملُنا بلامبالاة مع ذلك الزمان)، بل تفكّراً بمصير حداثتنا المبتورة، وحال مُدننا المخرّبة، واستقلالاتنا الناقصة، وديمقراطيّاتنا التي ما زلنا نحاولُها... بعدها، لكُمْ أن تتخيّلوا إلى أيّ حدٍّ يُكثف فقْدُ شخص واحد كلّ ما سبق.

• عن العربي الجديد